

جمالية الفن في شعر عمر بن أبي ربيعة

Aesthetic of Art in Poetry of Umar Ibn Abi Rabia

^[1] **Dr. Mufti Muhammad Saleem**

Research Officer, Department of Arabic, G.C. University, Faisalabad.
drnaqshbandi@gcuf.edu.pk

^[2] **Prof. Dr. Matloob Ahmad (Corresponding Author)**

Head of Department, Arabic and Islamic Studies
The University of Faisalabad
Faisalabad, Pakistan

hod.is@tuf.edu.pk

^[3] **Muhammad Farhan Ur Rehman**

Ph.D(Research Scholar)MY University Islamabad, Visiting Lecturer(Islamic Studies) GGC
Tahlianwala Jhehlum, Pakistan. E-mail: farhanrehmanmuhammad@gmail.com

ABSTRACT

The research article “Aesthetic of Art in Poetry of Umar Ibn Abi Rabia” discussed this great poet his poetry Art with its riel detail and investigate thoroughly his poetry aesthetic. The poet accommodate many kinds of sayings, and from his point of view narrative discourse can enter in to the folds of the poetic text. This is what we have sean in amny examples of the diven of Umar Ibn Abi Rabia. of Umar Ibn Abi Rabia rase to art, making him take eye-catehing steps. He produced texts that not only absorbed the aesthetics of the time, but went beyond them to the age of the age.

key words: Effect of grammar, guidance readings, readings, Koran, grammar

تتمثل هذه الخاصية في شعر عمر بن أبي ربيعة في لغته الخاصة لنظمه الشعري، فهي تنبعث من النظرة المختلفة لطبيعة الجمال، فكانت التراكيب والمفردات، والصيغ، والتصويرات الشعرية تُشكّل أساساً لجمال شعره ابن أبي ربيعة، وتتفاعل هذه العناصر مع جمال تجربته الذاتية لتكوّن حالة من التشكيل الجمالي الخاص به. ومن الجدير بالذكر أنّ اللغة في شعر ابن أبي ربيعة تتمثل في اختيار المفردة المناسبة التي تحمل الطابع العرقي التابع للتراث، بالإضافة إلى استخدام الصيغ المتكررة ضمن العمل الأدبي الشعري، وهذان العنصران مهمّان لإبراز الجمال في شعره، ويتّضح هذا في بلاغة تصويره للمرأة، أو الأعراف والعادات.

التعريف بعمر بن أبي ربيعة:

عُمر بن عبد الله بن أبي ربيعة هو الشاعر العربي القُرشيّ الذي كان يعود نسبه من قُريش تحديداً إلى قبيلة كعب بن لؤي، والذي كان يُعنى بشعر الغزل المتمثل في مدح النساء وأوصافهنّ، حيث ذُكر في كتاب "الأغاني" أنّ العرب كانوا قد اعترفوا بتقدّم قريش في جميع الأمور إلا في الشّعر، لكن بعد قدوم ابن أبي ربيعة اعترفوا لهم بالشّعر كذلك فلم يتفوّق عليهم أحد بعد ذلك،¹ كما أشار الأستاذ الدكتور "يوسف خليف" إلى أنّ الشاعر الأمويّ عمر بن أبي ربيعة يعدّ أكبر شعراء الغزل في تاريخ الأدب العربيّ، كما وصف حياة أبي ربيعة بأنّها كانت مليئة بالحبّ، حتى أنّها لم تكن إلا قصّة حبّ طويلة تتناول شخصيات وأحداث متنوّعة، كما تميّز ابن أبي ربيعة كذلك في كونه وسيماً بهيّ الطّلعة يلفت أنظار من حوله بجماله.²

يجب الإشارة إلى أنّ أبي ربيعة عُرف بغناه الكبير، حيث كانت تعود بعض ثروته إلى ما ورثه عن والده التاجر منذ أيام الجاهليّة، فعمل ابن أبي ربيعة على إنمائها حتّى تضاعفت ووصلت إلى ثراء واسع، أمّا أمّه فعاد أصلها إلى اليمن، والتي كانت قد قامت على رعايته وحدها بعد وفاة زوجها لكنّها أشبعته دلالاً في تربيتها له حتّى وصل الحال إلى أن تصّله بسيدات مكّة ذوات الطبقة الأرستقراطية الرّفيعة وكانت هي واحدة منهنّ، ومن الجدير بالذّكر أنّ أبي ربيعة أُغدى بالعديد من مظاهر التّرف، والنّعيم، ومُتّع الحياة، فكان له من الخدم ما يكفي للقيام بأموره، كما أنّ مُجتمعته الذي كان يبلغ من التّرف والحضارة مبلغاً عظيماً ساهم أيضاً في إيجاد هذه الحالة من الفراغ لديه والانصراف إلى الشّعر والغزل.³

نشأة عمر بن أبي ربيعة وأثرها في شعره:

عاش عمر بن أبي ربيعة حياته في المدينة فكان يهنأ فيها بأسباب التّرف والجاه، كما كان شديد التعلّق بالنساء، فلم يكن يُفوّت فرصة لقاءهنّ في اجتماعاتهنّ في المنتزه أو رحلات الصّيد، أو أماكن اللّهو المعروفة عندهم، ولأنّه كان صاحب وجه حسن ومال فُتحت أمامه طرق اللّهو على اختلافها، ثمّ انتقل ابن أبي ربيعة للعيش في مكّة لكنّه استمرّ في حياته المليئة باللّهو، وقال يوماً يصف فيه تحرّيه لمواسم الحجّيج رغبة في رؤيته للنساء ومجالستهم إنّهُ يتمنى لو كان الحجّ يأتي كلّ يومين، وقد أمضى ابن أبي ربيعة حياته بمعرفته العديد من المحبوبات اللّواتي كان ينتقل بينهنّ من واحدة لأخرى، فقال في تنقله هذا:

فإنّ كرهته فالسّلام على أخرى⁴

سلام عليها ما أحبّت سلامنا

بقي ابن أبي ربيعة على هذه الحال حتى تاب في آخر أيام حياته، وعلى الرغم من عدم التيقن من إتمامه الثمانين من عمره إلا أنه قيل في توبته أنه عاش أربعين عاماً في الضلالة والغواية، وأربعين أخرى في نُسك وتوبة، وذكر في قصص توبته أنه أعتق تسعة عبيد من عنده إثر نذر نذره أنه في كل بيت شعريّ يقوله سيُعتق عبداً، فمرّة في الطّواف رأى شاباً يكلم فتاة، وكانت الفتاة ابنة عمّه، والشّاب كان قد تقدّم لخطبتها سابقاً لكنّ عمّه رفض، بل كلّفه مهراً كبيراً لا يُطيقه، فعَمَد ابن أبي ربيعة إلى عمّه ومعهُ الشّاب، فخطب ابنة عمّه له بالإضافة إلى دفعه مهراً عنه، وقد كان لهذه الحادثة أثر كبير في نفسه، فكتب فيها تسعة أبيات لكنّه إيفاءً للنذر أعتق تسعة عبيد من عنده، ومطلع هذه الأبيات هي:

تقول وليدتي لَمَّا رأني طربتُ، وكنْتُ قد أقصرتُ حيناً
أراك اليوم قد أحدثت شوقاً وهاج لك الهوى داءً دفيناً⁵

الجمالية في شعر عمر بن أبي ربيعة:

السرد في شعر عمر بن أبي ربيعة:

يُعدّ السرد من الخصائص البارزة في شعر ابن أبي ربيعة، فقد عمل على تقديم الأحداث في شعره على نحو تسلسليّ مُترابط، ومُتناغم يُساهم في رُقّيّ شعره، وفيما يلي العناصر الأساسيّة التي تقوم عليها خاصيّة السرد:⁶

- الرّواي: يتمثّل هذا العنصر في تتبّع صوت الرّواي في سياق السرد لمعرفة المُتكلّم في الحكاية، بالإضافة إلى معرفة التّدخلات التي يكون بها الرّواي ضمن سرد الحكاية، فالمُتكلّم يكون مثلاً في حالتين الأولى أن يكون رايّاً للحكاية وهو خارج عنها، والثّانية أن يكون جزءاً من الحكاية وداخلها، وذلك بكونه شخصيّة تُمثّل في الحكاية، وهذا يكون على هيئة مُشاهد غير مُشارك للأحداث ومسارها من بعيد مع الانتقال من كان لآخر، أو يكون شخصيّة رئيسيّة في الحكاية، ومن الجدير بالذّكر أنّ الرّواي إذا كان مُشاركاً في الحكاية بالمُشاهدة يُضيف إليها بعض التّعليقات التي تدخل ضمن تسلسل الأحداث، وتكون هذه الإضافات واضحة وملموسة؛ فهي تقطع تسلسل السرد في الحكاية، أمّا إذا كانت مُشاركة الرّواي بالبطولة فيصعب تمييز هذه الإضافات كونها تتداخل مع مسار السرد على نحو مُضمّر، ويجب الإشارة إلى أنّ صوت عمر بن أبي ربيعة هو البارز في ديوان أشعاره، فالقصائد تدور حوله فكان هو الرّواي فيها، فقال في هذا:

فأنت أبا الخطّاب، غير مُدافع على أمير ما مكث مُؤمّر⁷

- المحكي : يتمحور هذا العنصر حول الأحداث التي تُروى داخل النص السردّي، فالحدث من العناصر الأساسية لبناء هذا النص، كما يتناول الحدث الشخصيات والحوارات الحاصلة بينها في بيئة وزمان مُلائمين لهذا الحدث، وهذا كلّهُ ضمن نسق مُتسلسل ومُرتّب يجعل القارئ مُنجذباً بتتبّعه لهذه الأحداث، ومن الجدير بالذّكر أنّ الأحداث الرئيسيّة قد تُصحب بأحداث ثانويّة لإثراء الحدث الرئيسيّ الذي هو عماد قصّة القصيدة، ويجب الإشارة إلى أنّ ديوان ابن أبي ربيعة مليء بالأحداث التي تصحب قارئها إلى عوالم الحبّ، والمُحبّين بمشاعرهم وأحاسيسهم، وتُعدّ قصيدته "الرأنيّة" من الأمثلة الواضحة على قيامه بعرض تسلسل الأحداث وربطها مع انتقاله من حدث لآخر بسلاسة، وفيما يلي تسلسل الأحداث للقصيدة:⁸
 - الذّهاب لمُقابلة "نُعم" وهي محبوبة عمر بن أبي ربيعة.
 - الوصول إلى محلّ إقامة المحبوبة وعدم القدرة على رؤيتها.
 - ترقّب موعد نوم القوم في حذر.
 - دُخول اللّيل وذهاب القوم إلى النّوم.
 - التّعرف على المحبوبة من رائحتها، ثمّ الاقتراب من خيمتها.
 - صدمة المحبوبة عند رؤيتها للشّاعر.
 - ذكّر الحوار الذي نشأ بين الشّاعر والمحبوبة.
- الشّخصيات : يُعدّ هذا العنصر من أهمّ العناصر في النصّ السردّي التي يركّز عليها الرّواي، فهو يساهم في جذب القُراء إلى العمل الأدبيّ كلّما كانت الشّخصيات تُثير القارئ على تتبّعه، كما يُعرّف مُعجم لسان العرب لابن منظور لفظة "الشّخص" على أنّها "كلّ جسم له ارتفاع، وظهور يُراد به إثبات الذات"، ومن الجدير بالذّكر أنّ أفكار النصّ السردّي لا تتوضّح دون شبكة الشّخصيات المترابطة معاً، أو كما يقول الكاتب رولان بارت في كتابه "النقد البنيويّ للحكاية" إنّّه لا يوجد نصٌّ في العالم يُسرد بلا شخصيات، فكاتب القصيدة والرّواية لا يُمكنه أن يكتب دونها، كما أنّ لهذا العنصر اتّصلاً مع كافّة عناصر النصّ السردّي، وهذا ما أشار إليه الكاتب ضياء غني في كتابه "البنية السردّيّة في شعر الصّعاليك" حول الشّخصيات: "فهي تُمثّل العنصر الوحيد الذي تتقاطع عنده كافّة العناصر الشّكليّة الأخرى، بما فيها الإحداثيات الزمانيّة والمكانيّة الأخرى"، بالإضافة إلى كون الشّخصيات عاملاً يتناول جميع مظاهر السرد وكافّة العواطف والمخاوف كما وصفها الكاتب عبد الملك مرتاض في كتابه "القصّة الجزائريّة المعاصرة"، وفيما يلي تقسيم الشّخصيات والأمثلة عليها:

تقسیم الشّخصیّات فی النّص السّردیّ:

- الشّخصیّات الرّئیسیّة: هی الشّخصیّات الفاعلة فی النّص السّردیّ وأكثرها استخداماً فیہ، ویّضح هذا فی شعر عمر بن أبی ربیعة، بکیف تمّ التّركیز علی الشّخصیّات الحاملة للفكرة، وذلك بظهورها فی مواطن أكثر مع توجیہا لأحداث النّص، وتضّح هذه الشّخصیّة فی شعر ابن ربیعة من خلال وُرود شخصیتین بالتّناوب، فالشّخصیّة الأولى هی السّارد للحدث والواصف له، كما تظهر بمظهر المُحرّك للشّخصیّة الثّانیة التي تقوم بتوجیہ الأحداث، ثمّ يختفی السّارد وتبرز الشّخصیّة الثّانیة فی كونها المتحكّمة فی سیر السّرد، ویكون ظهور هذه الشّخصیّات فی شعر ابن ربیعة بالتّبادل فی إمساك دقّة الحوار.
- الشّخصیّات الثّانویّة: هی الشّخصیّات غیر الفاعلة والمُساعدة فی النّص السّردیّ، وقد أشار الكاتبان عبد القادر أبو شریفه، وحسین لافی قزق فی کتابهما "مدخل إلى تحلیل النّص الأدبیّ" إلى أنّ الشّخصیّة الثّانویّة تقوم بإبراز الجوانب غیر الظّاهرة والمجهولة للشّخصیّة الرّئیسیّة، ومن الجدير بالذّکر أنّ هذه الشّخصیّة لا تندمج مع الأحداث بشكل مُباشر ممّا لا یجعلها لامعة فی القصّة، فهي تقوم بتوضیح بعض صفات الشّخصیّة الرّئیسیّة ومساعدتها، وربّما تكون كما قال الكاتب غرید الشّیخ: "مناقضة له، فتحدّد له ما یتحتّم علیه فعله، وتضع العراقیل فی دربه"، وهكذا فقد لا تُقدّم الشّخصیّة الثّانویّة المُساعدة بل قد تأتي بالمتاعب والمجنّ للشّخصیّة الرّئیسیّة، وقد یصل الأمر إلى أن تُحدّد مصیرها، ویّضح هذا فی شعر ابن ربیعة، فمثلاً عند ذكره لقريب محبوبته "نُعْم" وهُنا هذه هی الشّخصیّة الثّانویّة قام بتصویره علی أنّه یغار منه، وأتّها ربّما یُحبّ محبوبته.⁹

الأمثلة علی أنواع الشّخصیّات فی شعر ابن أبی ربیعة:

فیما یلی أبیات تُوضّح الشّخصیّات الرّئیسیّة فی شعر ابن أبی ربیعة:

فقالَت فإنّا قد بذلنا لكِ الهوی فبالطّائر المیمون تُلقى وتُحَبّر
فقلتُ له: إن كنت أهل مودّة فمیعاد بینی وبنیك عزور

وهذا بیت فی إحدى الشّخصیّات الثّانویّة، وهي قریب محبوبه ابن أبی ربیعة "نُعْم":

إذا زُرت نُعماً لم یزل ذو قرابة لها کُلّما لاقیتها یتنمر

• الجوار: هو كل ما يدور بين شخصيات النص السردى، كما أنه من أهم العناصر التي يتركز عليها الكاتب أو الشاعر لتصوير الشخصيات، ويجب التنويه إلى أن أشعار عمر بن أبي ربيعة اشتملت على الحوارات المتصلة بالسرد، فالسرد يتناول الأحداث الحاصلة، ووصفها، والتعريف بالشخصيات، والحوار يتمثل بالكلام المتداول بين هذه الشخصيات، ومن الجدير بالذكر أن ابن أبي ربيعة تميز في تحكّمه في الحوارات الواردة في أشعاره بمهارة، فيتنقل بين "قلت لها"، و"قالت لي"، ويكثر هذا في قصائده، فقصيدته الرائية مثلاً مبنية على حوار أساسه "عمر"، ومحبوبته "نعم" وأختها، على الرغم من أن القصيدة تقع في أكثر من عشرين بيتاً، ومثال الحوار فيها، دخول ابن ربيعة إلى خيمة محبوبته، فيصوّر الحال بقوله:

فحييت إذ فاجأتها فتولّتهت وكادت بمخفوض التحيّة تجهز

وقالت وعضت بالبنان فضحتني وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر¹⁰

• المكان: يُعتبر هذا العنصر "بمثابة العمود الفقري لأي نص"، وهذا على حد قول الكاتب حميد الحميداني في كتابه "بنية النص السردى"، فهو يرى أن العناصر الأخرى التي تُكوّن النص تسقط تلقائياً إذا اختفى هذا العنصر، ويجب الإشارة إلى أن عنصر المكان يُشكّل هيكله من هياكل الكلام في النص السردى، ومن الجدير بالذكر أن المكان يظهر بهيئة متلوّنة حسب الشخصية في شعر ابن أبي ربيعة، وتتضح الشخصيات في قصائده دائماً في حيّز ما يُضيف جمالاً للحدث، ومثال ذلك ذكره للعديد من الأماكن في شعره مثل "الجزع" وهو مكان مُنعطف الوادي، و"الأذاخر" وهو مكان يقع قريباً من مكة، كذلك "الحرّاء" الذي يُعدّ جبلاً من جبال مكة ويبعد عنها ثلاثة أميال، أمّا الأبطح فهو مكان بين مكة ومنى ويقع على مسافة متساوية بينهما، فكانت تُعدّ هذه المواقع مُلائمة للحديث عن الحُب، كما أن ابن أبي ربيعة ذكرها في شعره على هذا النحو:

حدّث حديث فتاة حيّ مرةً بالجزع بين أذاخر وحرّاء

قالت لجارتها (عشاء) إذ رأت نزه المكان وغيبية الأعداء

في روضة يَممنها موليّة ميثاء رابية بعيد سماء

في ظلّ دانية الغُصون وريقة نبتت بأبطح طيب الثرياء

• الزّمان: يتّسم هذا العنصر في استطاعته نقل الأحداث والشخصيات من حال إلى أخرى، وإذا كان الحدث يندم إذا لم يقترن بزمان ما فإنّ بيئة الحدث تتغيّر كثيراً عند وجود الزّمان كنصير يحدث تغيّرات فيها، وعند التّظر في قصائد عمر بن أبي ربيعة يُرى الزّمان على حالتين،

فإمّا يكون مُحدّداً بوقت مُعيّن، مثل "يوم"، أو "ليلة"، وإمّا أن يكون غير مُحدّد، فيكون زماناً مفتوحاً غير مُقيّد، ويجب الإشارة إلى أنّ قصائد ابن أبي ربيعة يغلب عليها استعمال الزّمن الماضي، ومثال ذلك قوله في "الليل"، كما كان كثير الإيراد له في أشعاره؛ لما يملكه من جمال ساحر ولأنّ لقاءاته التي عاشها كانت في الليل:

فيا لك من ليل تقاصر طولهُ
وما كان ليلى قبل ذلك يقصُر¹¹

اللون في شعر عمر بن أبي ربيعة:

إنّ لوجود اللون ودلالاته في الشعر أهميّة لتصوير المشهد النفسي، فيظهر هذا واضحاً عند الشّاعر الأمويّ عمر بن أبي ربيعة، كما تصف هذه الخاصيّة في شعره الحياة التي كان يعيشها في الحجاز بصورة ملوّنة تعكس الحياة والحضارة فيها، ويجب الإشارة إلى أنّ اللون ورّد في شعر ابن أبي ربيعة على نسقين اثنين هما:

• نسق الصُّور: يتعلّق هذا النسق في ثلاثة صُور هي:

- صُورة غزل المرأة من خلال وصف شعرها، وعينيها، ووجهها، وفمها، وأسنانها، كذلك أناملها، وثيابها، وجواهرها، بالإضافة إلى كُتبتها، ومكانها.
- صورة الشّاعر الذي يتحدّث في الأبيات الشّعريّة، فيُوصف شعره، وشكله، وثيابه.
- صورة الطّبيعة وما تحويها من الحداثق، والحيوانات، والماء، والريّاض.

• نسق اللون نفسه: يقوم هذا النسق على ثلاث صُور هي :

- اللون الصّريح: هو استخدام الشّاعر لمعطيات الألوان ودلالاتها بشكل واضح، وذلك في تصويراته الشّعريّة، لذلك يُسمّى أيضاً باللون المباشّر، كما أنّ عمر بن أبي ربيعة تنوّع في استخدامه للألوان في شعره، ويجب الإشارة إلى أنّ العديد من أبياته الشّعريّة غلب فيها اللونان الأبيض والأسود، بالإضافة إلى إيراده القليل لبعض الألوان الأخرى مثل الأزرق، والأخضر، والأصفر.
- اللون الضّمّني: هو اللون غير المباشّر في شعر عمر بن أبي ربيعة الذي كان يتّجه إليه إذا لم يُسعه اللون المباشّر في تصوير فكرته، أو لعدم استطاعته إيجاد صورة لونيّة تُعطي طابعاً موحياً لها، ويُعدّ هذا اللون الأكثر وُروداً من هذه الأنواع الثلاثة، ويجب التّنويه إلى أنّ ابن أبي ربيعة عمّد إلى استخدام ظلّ اللون وانعكاسه في هذا النوع، حيث تمثّل ذلك بذكره بعض المفردات مثل القمر، والشمس، والليل، ودُجى الظلام، والبرق، كذلك حصى برد، الأبقوان، والأغر، وعناقيد الكرم، والشّيب، وأيضاً الحور،

الورس، المٌخضب، والكافور، والمسك، بالإضافة إلى الذهب، والدُّبج وغيرها. ومن الجدير بالذِّكر أنّ أكثر الألوان غير المُباشرة استخداماً هو لون البياض في بريقه ولمعانه باستخدام مُفردتيّ الشَّمس والقمر، وذلك لكونهما من مصادر الضّوء واللّون، ومثال هذا تشبيه ابن أبي ربيعة بياض وجه المرأة في أحد أبياته بأنّه ضياء القمر في اللّيلة الظلماء، وذلك في قوله: "كما يضيء ظلام الحنّديّ القمر."

○ اللّون دالاً: هو ذِكر مُفردة "اللّون" بشكل واضح، وتُسمّى هذه الصّورة لنسّق اللّون "تعبيريّة اللّون"، وهو أن يقوم الشّاعر بترك القارئ لخياله، وذلك في احتمالات يختار منها لوناً يُناسبه، فلا يُحدّد الشّاعر لوناً صريحاً ولا لوناً ضمناً في قصيدته، ويجب الإشارة إلى أنّ هذا التّوع هو أقلّ هذه الأنواع الثلاثة استخداماً في شعر ابن أبي ربيعة، كما أنّ أكثر صُور الرّجال تُصوّر من خلال هذا اللّون في شعره، ومن الأمثلة على استخدام هذا اللّون أبيات ابن أبي ربيعة في "أسماء" وشخصيّة أخرى لم يُسمّها، فيُورد الحوار بينهما على هيئة سؤال وجواب لتصوير لون الشّخصيّة الرّئيسيّة وهو "المُغيريّ"، ثم تأتي الأسئلة حول هذه الشّخصيّة من قبل الشّخصيّة غير المُسمّاة: "هل تعرفينه؟"، "أهذا المُغيريّ الذي كان يُذكر؟"، ثم يُورد الإجابة القطعيّة من أسماء أنّه هو، مع إيراد لفظة "اللّون"، على نحو مُتقدّم لإظهار أهميّتها هنا وهذا هو البيت:

ففي فانظري أسماء هل تعرفينه أهذا المُغيريّ الذي كان يُذكرُ
فقال نعم لا شكّ غير لونه سُرى اللّيل يُحيي نصّه والتهجّر¹²

رُوح الدُّعابة والظُّرف في غَزَل أبي ربيعة:

تُعطي هذه الخاصيّة لشعر عمر بن أبي ربيعة طابعاً خفيفاً ظريفاً وبعيداً عن الملل، وهذا من خلال إيراد حكاياته الغزليّة بحوارات وسرد يحمل طابع الفُكاهة والألفة دون تكلف في استخدام اللّغة، إنّما بشكل بسيط يتناسب مع الطّابع الفُكاهيّ، ويجب الإشارة إلى أنّ هذه الخاصيّة تميّز باحتوائها على أساليب متنوّعة من الحوارات والسرد، بالإضافة إلى عنصريّ المفاجأة والمُفارقة. ومن الجدير بالذِّكر أنّه كان يكثرُ وُرود هذه الخاصيّة في شعر الغزل لأهل الحجاز المُتخصّص، خاصّة في شعر ابن أبي ربيعة الذي كان يروي قصصه الغزليّة في قصائده بأسلوب هزليّ طريف، ممّا جعله أولّ ناهض للقصص الّلاهية في الشّعر كنوع من الفنّ الأدبيّ، كما أنّ القصّة الهزليّة تظهر بعدّة مظاهر في شعر ابن أبي ربيعة، وهي:

- القصص الحوارية: هي القصص التي تركز على عنصر الحوار كقاعدة لها في بنائها للقصيدة، كما أنّ معظم الحوارات المدرجة فيها تكون بين الشاعر ومحبوبته، أو بين المحبوبة وصديقاتها، أو أطراف أخرى تتعلّق بهم، فكان يتناول الشاعر هذه الشخصيات بطريقة ضاحكة وهزلية، ومن الجدير بالذكر أنّ قصائد ابن أبي ربيعة الحوارية تتعلّق أغلبها بواقعة مُعيّنة، فلولا وجود الأحداث ما ظهر العمل قصصياً.
- القصص المتعلقة بالمواقف: هي القصص التي ترد فيها المشاهد على نحو فرديّ، فيكون للمشاهد الواحد أحداث مُتفرّقة، ويظهر هذا من خلال إظهار مواقف مُعيّنة للشخصيات من خلال أساليب الحوار، والسرد الموجود ضمن القصة ككلّ.
- القصص الغزلية التامة: هي القصص التي تتسم بالرّخم والكثافة في أساليب السرد والحوار، وهو ما يُسمّى بالسرد المُركّز، فيتمّ إيراد القصة الغزلية في شعر ابن أبي ربيعة كاملةً بشخصياتها، وأحداثها، وزمانها، ومكانها، لتكوّن حدثاً تاماً، ويجب الإشارة إلى أنّ للأشكال السردية التي اعتمدها ابن أبي ربيعة للكتابة في هذا النوع من القصص دوراً في إبراز الجانب الهزليّ على نحو مُتنوّع.¹³

صورة المرأة في شعر عمر بن أبي ربيعة:

تحتلّ المرأة مكانة كبيرة وغالبة في شعر عمر بن أبي ربيعة لُحُبّه للنساء عامّة، لكنّه لم يكن له محبوبة واحدة يكتفي بها، إنّما له العديد من النساء اللّوانى تغزّل بهنّ، كما لم يكن مثل من تستهويه الأغاني، والأموال، والأكل، إنّما جعل المرأة جُلّ اهتمامه بجمالها وحُسنها، حتّى أنّه لم يُفوّت فرصة رؤيتها في أيّ موقف، فكان يعمد إلى مواطن الطّواف ليسترق النّظر إليهنّ، كما ذُكر في كتاب "الأغاني" أنّه تنكّر مرّة في ثياب أعرابيّ ليرى بعض النسوة. ويجب الإشارة إلى أنّ أشعار ابن أبي ربيعة تناولت وصفاً كاملاً للمرأة ومفاتها، وذلك من خلال ذكره أجمل شيء في كلّ امرأة يذكّرها، ثمّ إضافة ما كان يراه جميلاً في واحدة إلى أخرى، ثمّ جمعهما في ثالثة وهكذا.¹⁴

كان النّمط الذي يتتبّعه ابن أبي ربيعة في وصفه للمرأة مبنياً على التّجميع، فلم تكن معايير جمال المرأة عنده مُنظمة؛ فهي لم تكتمل في امرأة واحدة إلّا إذا جُمعت كلّها معاً لتكوّن جمالاً حسيّاً لا يراه ابن أبي ربيعة إلّا باجتماع هذه الصّفات معاً، فلن تتواجد جميعها في امرأة واحدة بنظره، وممّا كان يعده ابن أبي ربيعة من مواطن جمال المرأة خدّها، ووجهها، وشعرها، وقوامها خاصّة لما كان سائداً عند العرب، وغير ذلك الكثير، وهكذا نرى أنّ ابن أبي ربيعة كان يتنقّل في كلّ مواطن الحُسن في المرأة، وقد قال واصفاً حاله هذه:

إني امرؤ مَوْلِعٌ بالحُسْنِ أَتَّبِعُهُ لا حظَّ لي فيه إلا لَدَّةَ النَّظَرِ¹⁵

الصورة الحسيّة في شعر عمر بن أبي ربيعة:

تتجسّد هذه الخاصيّة في عكسها للتّجارب والمغامرات التي خاضها عمر بن أبي ربيعة في حياته، فإنّ الصّور التي كان يعمل على إيرادها في شعره تترك أثراً عند قارئه يجعله يُعيد قراءتها مرّات كثيرة لما فيها من إبداع الصّياعة، وإظهار عمق التّجربة للشّاعر، بالإضافة إلى إضافتها حسّاً يمتّع القارئ ويلاصق حسّه. ومن الجدير بالذّكر أنّ التّصوير الحسيّ في شعر ابن أبي ربيعة يُظهر المرأة الحجازيّة بشخصيّتها، وحكمتها، وذكائها من خلال ذكركه لما تُعانيه من تجارب، وهذا من مُنطلق كونها إنسانة قبل أن تكون أنثى. ويجب الإشارة إلى أنّ عنصر الصّورة في الشّعر العربيّ يُعدّ أساسيّاً فيه، وذلك في كون الصّورة أداة الكاتب التي تُعبّر عن أفكاره وعاطفته، فهي تستوعب أبعاداً كثيرة من الخيال في ذهن الشّاعر، ونفسيّته.

إنّ الصّورة الحسيّة والبصريّة منها تحديداً تعكس دواخل الشّاعر من عواطف الحنين، والرّغبات، والغضب، والوله، والخوف، وغيره ممّا رسمه ابن أبي ربيعة في شعره الذي صوّر أهميّة البصر من خلال تصويرات بعيدة عنه، وذلك لما للنُّكران من أثر الدّهشة والقلق في نفوس القارئ، أمّا عند استخدام الصّورة الشّعريّة البصريّة التي تخلق حالة من اليقين لوجود الشّيء، فلم يكتفي ابن أبي ربيعة بإيرادها لإثبات الحدث وتشخيصه بشكل دقيق، إنّما أوجد حالة من التّصوير لذكرياته فيها، وأورد كلّ ما يُمكن تجسيمه في صورة بارعة يتلقاها القارئ بشكل تفصيليّ واضح لا جهالة فيه، فقال في إحدى قصائده التي غلب عليها التّصوير البصريّ في حديثه عن محبوبته هند:

لَمَنْ الدِّيارُ كَأَنَّ سَطُورُ	تسدي معالمها الصّبا وتُنيرُ
لَعِبَتْ بها الأرواحُ بعد أنيسها	نكباء تطرد السّفا ودبّورُ
دارٌ لهندٍ إذ تهيمُ بذكرها	وإذا الشّبابُ المُستعارُ نُصيرُ
إذ تستبيكُ بجيدِ آدمٍ شادين	دُرٌّ على لَبّاتِهِ وشُدورُ
تلك التي سبّت الفؤاد فأصبحت	والقلبُ رهنٌ عندها مأسورُ
لو دبّ دُرٌّ فوق ضاحي جلدِها	لأبانَ من آثارهِنَّ حُدورُ
غراء واضحة الجبين كأنّها	قمرٌ بدا للناظرين مُنيرُ ¹⁶

نقد الشّعراء لشعر عمر بن أبي ربيعة:

كان النّقد الموجه لعمر بن أبي ربيعة في عدم إحسانه في "الغزل"، وأنّه دائم الوصف لنفسه، ومنهم من رأى أنّه لم يُحسن وصف المرأة، كما قيل أنّه لم يملك ما ملكه الشّعراء من الرّقة في شعرهم

الذي يحوي شكاوهم من أحبّتهم، وهجرهم، وآلامهم من الصُّدود تجاههم، بل أنّه كان دائم الوصف لعاطفة أحبّائه فيه، وحسرتهم عليه، وأنّه لم يجد فيهم ما وجوده به من العاطفة، ومن الجدير بالذِّكر أنّ هذا النّقد عائد إلى المُفضَّل الضُّبّي، بالإضافة إلى كون هذا النّقد مُشابه لرأي الشُّعراء المُعاصرين في شعر ابن أبي ربيعة، أمثال شاعر الغزل العُدريّ "كثير" الذي شَهد له في كثيرٍ شعره، إلّا أنّه أخذ عليه إيراد المرأة في أشعاره بمظهر لا يُناسب حياءها كامرأة، فكان نقد "كثير" مثل غيره من نُقاد الحجاز مبنّي على الصّورة المُثاليّة للمرأة، أمّا الناقد الحجازيّ ابن أبي عتيق فردّ على أبيات لابن أبي ربيعة قائلاً إنّهُ لم ينسب أحد إليه بشيء إنّما أنسبه لنفسه، وهذه هي الأبيات:

بينما ينعتني أبصرني دون قيد الميل يعدو بي الأغرّ

قالت الكُبرى: أتعرفن الفتى؟ قالت الوسطى: نعم، هذا عمر

قالت الصغرى، وقد تيمّتها: قد عرفناه، وهل يخفى القمر!¹⁷

إنّ الصّورة المُثاليّة للمرأة نابعة من آثار الحضارة والتّرف الذي جعل الشُّعر مُتوعلاً في نفوس من يسمع الشُّعر، فكان نتاج ذلك أن يكون النّقد الحجازي لشُّعر الغزل من خلال وضع حدود له لا يصحّ تعديها، فكان الناقد لشُّعر الغزل دائم الرّفص للأشعار التي لا تتناسب مع الصّورة المُثاليّة للمرأة، ويقبل من يوافقها، ومن النُّقاد الذين امتلكوا هذا النّهج في النّقد "قُدامة بن جعفر"، ومثال هذا النّهج قول الناقد الحجازيّ ابن أبي عتيق في بيت شُّعر لابن أبي ربيعة قال فيه لمحبوبته: "فعديّ نائلاً وإنّ لم تنيلي"، فقال ابن أبي عتيق فيها إنّها أبيات صادقة تنبع من عاشق حقيقيّ صادق، ثمّ قارنها ببيت للشاعر العُدريّ "كثير" قال فيه لمحبوبته: "ولستُ براضي من خليل بنائلي"، فنقده أنّ ليس من تصرّفات العاشق الحقيقيّ أن يُساوي نفسه بمحبوبته، وأنّ ما كتبه كان كلام مكافأة وليس كلام عشق حقيقيّ، ولم يكن نقد ابن أبي عتيق مبنياً على أكثر الشُّعراء إحساساً، إنّما على التّصوير الأقرب لحقيقة للمرأة على الحالة التي يجب أن تكون فيها تحت الصّورة المُثاليّة لها.¹⁸

النتائج:

يُمكن اختصار منطق اللّغة عند ابن أبي ربيعة، أنّه خاضع للمفاهيم الثرائية الجماعية التي تُستخدم في البيئة التي كان ينتمي إليها، فكانت الأوصاف للمرأة تتمحور حول لفظة "الجمال"، على الرّغم من ذكره للعديد من المحبوبات في قصائده، لكنّ هذا النوع من التّصوير البلاغيّ يجعله يُميّز امرأة عن غيرها من خلال توزيعه لصفات الجمال بينهنّ، ليُشكّل في التّهيأة صورة مثالية لمفهوم جمال المرأة عنده، وعلى الرّغم من ذكره لمواطن الجمال في المرأة كلّ مرّة في قصائده، إلّا أنّ لكلّ موقف حالة دلالية، ونفسية، وفكرية خاصّة به. ويجب الإشارة إلى أنّ لغة ابن أبي ربيعة تتسم بليونتها، وقربها من ألسنة النّاس في حياتهم المتداولة، خاصّة أنّه كان يُعبّر عن المُجتمع الذي يقطن فيه.

التوصيات:

إن عمر بن أبي ربيعة من فحول شعراء المسلمين في صدر الإسلام بعد مطالعة حياته و شعره ظهر لنا المواضيع الأخرى لينبغي أن يحقق عليها المحقق وهي هكذا:

- (1) الفكر والخيال في شعر ابن أبي ربيعة.
- (2) صورة المرأة في شعر ابن أبي ربيعة.
- (3) التقابل لموضوعات شعر ابن أبي ربيعة لغيره من التابعين الشعراء.
- (4) الصورة المثالية للمجتمع في شعر ابن أبي ربيعة.
- (5) موضوعات الغزل لغيره أم لا.

الهوامش

- 1 . أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، دارالكتب، القاهرة، ص ١١٨
Abu al-Faraj al-Isfahan, Al-Aghani, Dar-ul-Kutab, Al-Cairo, P:118
- 2 . يوسف خليف، الدكتور، الشعراء المماليك، دار قباء للطباعة والنشر، 2001ء، ص 109
Dr. Yousaf Khaleef, Al-Shur'a Al-Mamalik, Dara Quba LilTaba'a Wa-Nasher, 2001, P:109
- 3 . أنظر: عباس محمود العقاد، شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص ٦
Abbas Mahmood Al-Uqad, Shaer Al-Ghazal Umar Bin Abi Rabia, Muasasa Hidavi Liita'aleem Wa-Saqafa, Al-Cairo, P:6
- 4 . نفس المصدر، ص ٧
Ibid, P:7
- 5 . نفس المصدر، ص ٨
Ibid, P:8
- 6 . أنظر: ميلاد عادل جمال المولى، السرد عند شعراء القصائد العشر الطوال، دار غيداء للنشر، عمان، ٢٠١٣ء، ص ٢٦
Melad Adil Jamal Al-Maula, Al-Sarad Enda Shua'ra Al-Qasa'ed Al-Ashar Al-Tawal, Dara Ghaida Llnashr, Oman, 2013, P:26
- 7 . أنظر: عباس محمود العقاد، الشعراء المماليك، ص ٩
Abbas Mahmood Al-Uqad, Al-Shur'a Al-Mamalik, P:9
- 8 . محمد زيدان، البنية السردية في النص الشعري، مكتبة الأدب الغربي، ٢٠٠٤ء، ص ١٦
Muhammad Zaidan, Al-Banya-tul-Sardia Fi Al-Nas Al-She'ari, Maktabatul Al-Adab Al-Gharabi, 2004, P:16
- 9 . نفس المصدر، ص ١٨
Ibid, P:18

- 10 . ممدوح محمد الحسن الجزولي ، صورة العصر في شعر عمر بن أبي ربيعة، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم، السودان ٢٠٠٨م ، ص ٣٣
Mamdoh Muhammad Al-Hasan Al-Jazoli, Surat-ul-Asar Fi She'ar Umar Bin Abi Rabia, Kuliatul Adab, Jamia Al-Khurtoom, Sodan, 2008, P:33
Ibid, P:34
- 11 . نفس المصدر ، ص ٣٤
- 12 . ميلاد عادل ، السرد عند شعراء القصاصد العشر الطوال ، ص ٢٦
Melad Adil, Al-Sarad Enda Shua'ra Al-Qasa'ed Al-Ashar Al-Tawal, P:29
Ibid, P:39
- 13 . نفس المصدر ، ص ٣٩
- 14 . أبوالفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ص ١١٩
- 15 . على البطل ، الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري ، دارالأندلس للطباعة، بيروت ، ١٩٨٣م ، ص ٨٧
Abu al-Faraj al-Isfahan, Al-Aghani, P:119
Ali Al-Batal, Al-Sura Fi Al-She'ar Al-Arabi Hatta Awakhir Al-Qarn Al-Sani Al-Hijri, Dar-ul-Andulus Liltaba, Berut, 1983, P: 87
Ibid, P:88
- 16 . نفس المصدر ، ص ٨٨
- 17 . نفس المصدر ، ص ٨٩
- 18 . أنظر: عباس محمود العقاد ، شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة ، ص ٨٠
Abbas Mahmood Al-Uqad, Shaer Al-Ghazal Umar Bin Abi Rabia, P:80